بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التراث الثقافى لأى شعب هو الغطاء الذى يحمى هذا الشعب أثناء مسيرته الطويلة عبر الأجيال ، من التيارات الغريبة التى تحاول أن تسلبه مقومات تواجده الفريد • وكلما استطاع أى شعب أن يحقق قدرا عاليا من التكيف مع ذاته من جهة ومع العالم الخارجى من جهة أخرى ، وكلما امتدت جذوره الثقافية الى الأعماق أصبحت ثقافته جزءا من وجدان الشعب وشخصيته القومية •

وعلى الرغم من أن التراث الشعبى — بفروعه الأربعة — يشكل وحدة لا فكاك لها ، فان تسليط الأضواء على الثقافة المادية والفنون الشعبية أو الاهتمام بالأدب الشعبى أو بالعادات والتقاليد — التى تتجسد فى ممارسات عملية — والتى يمكن الكشف عنها بالمعايشة والملاحظة المتأنية ، كان بدرجة أعلى بكثير من القدر الذى خصص لدراسة المعتقدات والمعارف الشعبية • فلم تحظ دراسة المعتقدات الا بالنذر اليسير من البحوث — سواء بالنسبة للتراث الشعبى العربى أو التراث الشعبى العالمى •

ولا يمكن أن نعتبر احجام الباحثين عن اعطاء هذا الفرع من التراث حقه من الاهتمام الى ضآلة قدره فى التأثير على الثقافة الكلية ، وانما يرجع — فى واقع الأمر — الى صعوبة الوصول الى أعماق المعتقدات باعتبارها خبيئة فى صدور الناس ، الأمر الذى يحول دون تمكن الباحثين من تحديد مستوى تأثيرها فى شبكة العلاقات وعمق الترابطات التى تسود العلاقات التفاعلية داخل الجماعة • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان القدر الهائل من الوقت الذى تتطلبه دراسة المعتقدات والوقوف على تصورات الناس وتفسيراتهم لأشياء لا يجسرون على اجتياز الحدود التى تحميها وتحميهم فى ذات الوقت من غضبها ، اذا أحست هذه القوى بأن هناك من يعبث بعالمها الخاص ويسعى بصورة أو بأخرى الى كشف أسرارها أو التأثير على قوتها وفعاليتها • كان وراء الاحجام الواضح للاهتمام بهذا الفرع من المعرفة •

ولهذا فان الباحث — فى حقل المعتقدات — ينبغى أن تتوافر أمامه مجموعة من الفرص التى يمكن أن تسهم فى الوقوف على فعالية المعتقد • ومن أهم هذه الفرص أن ينجح الباحث فى تحويل الأدوار بحيث يأخذ الراوى موقف المرشد والموجه والناصح الأمين ازاء موقف معين يحتاج فيه الباحث أن يتلقى منه العون أو المشورة • ومن المسلّم به أن مثل هذه المواقف لا تتكرر ولا يتيسر للباحث اصطناعها ، حتى لو أتيح له امكانيات الاستقرار الطويل فى مجتمع البحث ، لان الحصول على تصورات الناس لا تكفى معه الملاحظة والوقوف على ما يخفيه الناس فى صدورهم ، ولا يبرره اهتمام الباحث بالدراسة الموضوعية المقارنة ، مهما حاول اقناع الناس بأن دراسته تهدف — على المدى البعيد — الى الاسهام فى مساعدتهم •

والدراسة التى بين أيدينا مزدوجة المقصد ، فهى ترمى الى تحديد دقيق لشكل ومحتوى المنهج الأنثروبولوجى فى دراسة المعتقدات من ناحية ، كما ترمى الى الكشف عن فعالية القوى الروحية والأخلاقية المتمثلة فى المعتقدات والمعارف الشعبية كقوى دافعة لنضج الشعوب وتقدمها ، وبالتالى تصحيح الأفكار غير السليمة والشائعة عن أن الجانب الأكبر من المعتقدات هى من قبيل الخرافات والخزعبلات التى لا يقبلها العقل أو المنطق السليم من ناحية أخرى •

فعلى الرغم من البحوث العديدة والدراسات الأنثروبولوجية التى لا حصر لها ، فانه لم تتحدد — حتى يومنا هذا — الأركان الأساسية والوسائل المباشرة وغير المباشرة التى يستلزمها المنهج الأنثروبولوجى فى دراسة المعتقدات والمعارف الشعبية بصورة تميزه عن المنهج المتبع فى دراسة العادات والتقاليد أو الأدب الشعبى وفنون المحاكاة أو الفنون الشعبية والمادية • ذلك لأن لكل فرع من هذه الفروع موضوعاته ومقوماته ونظرة أصحابه اليه • فبينما نجد بعضها من النوع الذى يشعر أصحابه بالفخار والاعتزاز اذا كشفوا عنها وأعلنوا صراحة عن طرائق ممارساتهم لها ، نجد البعض

الآخر من النوع الذى يحيطه أصحابه بستار من الكتمان ويخشون أى تسرب لما يخفونه فى صدورهم الى حيز التقدير والتقييم من جانب أناس لا يعيشون حياتهم ولا يلتحفون بنفس الغطاء الثقافى الذى يوحّد بينهم • ولهذا ينبغى أن تتفاوت طرائق البحث داخل المنهج الانثروبولوجى بحيث تستجيب كل طريقة لمتطلبات الموضوع ، وللأعماق التى يرجى الكشف عنها •

فكلما كان الموضوع من النوع الذى يمكن الكشف عنه بملاحظة ممارسات الناس وطرائق حياتهم كانت الطريقة المثلى فى المنهج الانثروبولوجى هى التى تقوم على الاستقرار والتكيف مع مجتمع البحث حتى تمر كافة الممارسات على مدار الحياة الموسمية أو الدورية بحسب الأحوال — ويتيسر ملاحظتها — وبالتالى الاعتماد على اخباريين محترفين أو متطوعين اكتسب الباحث ثقتهم ، لاعطاء التفسيرات الممكنة لهذه الممارسات ، وقد يجد الباحث أن عليه التخلى عن معلومات الاخباريين والاعتماد على قدراته التركيبية وحدها •

بينما يجد الباحث أن عليه تغيير الطريقة تماما اذا كان موضوع الدراسة من النوع الذى لا تكشف عنه الممارسة ، لأن المطلوب هو معرفة تصورات الناس وتفسيراتهم لمجموعة من المعتقدات والمعارف التى يتناقلونها جيلا بعد جيل دون أن يحاولوا مناقشتها أو تحديد الجوانب المنطقية فيها • ففى هذه الحالة لابد من التزاوج بين الملاحظة المشاركة والمقابلات الشخصية التلقائية التى يفرضها الموقف وتتيحها الظروف دونما تكلف أو اصطناع فى تحقيق هذه المقابلات •

وما من شك فى أن الفوز بمعلومات تنبثق عن مثل هذه اللقاءات هى من الأمور التى تساعد فيها الظروف أكثر مما يحققه اللقاء المنظم المعد له سلفا • فقد تمر أسابيع دون أن يتحقق أى لقاء على هذا المستوى ، وقد يتصادف أن تتابع اللقاءات ويبدو الزخم واضحا فى محتواها وفى العفوية والتلقائية التى يمارسها الراوى بشكل يدعم فعالية الاستقرار والانتظار والترقب وفعالية الاختيار الملائم للمواقع التى يمكن أن تكون

مجالا للقاءات سواء لمرة واحدة أو لعدة مرات حسب مستوى التفاعل والايجابية التى تظهر عند اللقاء •

ولهذا فان دراسة المعتقدات ليست مجرد دراسة لأبعاد المعتقد ودرجة ذيوع رواية أو خفوت رواية أخرى حول شكله ومحتواه — وهو مايمكن أن يستجيب له الاستبيان — وانما فى تحديد أعماق المعتقد فى وجدان الناس وفى أعماق صدورهم • وقد يعبر الصمت فى بعض مواقف اللقاء أكثر مما يعبر عنه الحديث ، وقد يكون لهمسة خافتة دلالة نوعية عميقة الاثر أقوى من الصيحة العالية •

وهكذا يتبين أن فعالية الملاحظة الاثنوبيولوجية للمعتقدات يرتكز الجانب الاكبر منها على الحس المرهف لدى الباحث ، وعلى قدرته فى التمييز بين النبرات الصوتية والجزئيات التى يعطيها الراوى قدرا هائلا من اهتمامه بينما يمر مرورا سريعا على جزئيات أخرى يتضمنها هذا المعتقد أو ذاك •

الهدف المباشر لهذه الدراسة

تهدف هذه الدراسة الى القاء الضوء على مجموعة من الفروض للكشف عن وجهها الصحيح ، من واقع دراسة محدودة على مجتمع يتميز بضيق رقعته المكانية وتجانس تراثه الثقافى والتفاعل المستمر بين وحداته البشرية المعتدة أو المحدودة — ابتداء من العشيرة الى البيت والعائلة مرورا بالقبيلة والفرقة والفخذ والبطن والحولة — وتدور هذه الفروض حول القضايا التالية :

أولا : أن المعتقدات ليست جميعها على مستوى واحد متكافئ فى ضمائر الناس وتصوراتهم وانما تتفاوت فى أعماقها بحسب الاصول التى يتنهل منها كل معتقد • فقد يكون معتقد ما ذا أصل دينى ، وقد يكون ذا اتصال بتفكير غيبى ميتافيزيقى ، وقد يرتبط المعتقد بأمور حياتية تصقلها الممارسة والخبرة اليومية • وعلى هذا تظهر الحاجة الى محاولة الكشف عن الابعاد التاريخية لكل معتقد للتمييز بين ما هو سحيق فى قدمه وبين ما هو قريب وعصرى يمكن للناس أن يذكروا نشأته — بما يحفظونه فى صدورهم جيلا بعد جيل — بكل ألوان القناعة الممكنة •

ثانيا : ان المعتقدات على اختلاف مصادرها الدينية والميتافيزيقية والعملية انما تشكل بناءا متراصا ومتلاحم الوحدات ، بحيث تمثل نسقا متميزا له نظمه المتكاملة وتصاحبه مجموعات من الشعائر والطقوس التي تتفاوت في حدتها وشدتها ، وفي مداها الزمني المناسب ، ولكنها تتماثل جميعها في قوتها التي لا تقهر ،وفي سطوتها والزامها ، بالشكل الذي يعطيها — داخل البناء الاجتماعي — قداسة وتقديرا يضفي على ممارستها قدرا كافيا من الخشوع والخضوع والرهبة التي توحد بين أنظمة هذا النسق الاعتقادي مهما تفاوتت مستويات هذه الممارسات استنادا الى المصدر الذي يغذي فعالية واستمرارية المعتقد .

ثالثا : الثقافة بوصفها شيئا مكتسبا ينشأ عن تفاعل الناس مع البيئة ، لا يمكن أن تكون مادية بحتة ، وانما هي بوتقة تتفاعل فيها القوى المحيطة بالانسان على اختلاف تشكيلاتها وأهم هذه القوى هي تصورات الناس وتفسيراتهم لما لا يجد التفسير التجريبي المعطى أو التحليل الفكري العقلاني . فتصورات الناس لحسن الطالع أو سوئه أو تفسيراتهم للقدرات والمعجزات والخوارق التي تنتمي الى عالم مجهول وقوى غير مرئية ، وحرصهم — الذي لا يتزحزح — على أن تكون بدايات أعمالهم ونهاياتها في شكل معين أو في اطار شعائري خاص، كلها من بين القوى التي تشكل نسق المعتقدات في ثقافات شعب مهما وصل الى أعلى درجات التقدم العلمي ، أو يعيش في بساطة تقترب من الاشكال الأولى لبداية الخليقة . وهكذا فان الفرضية التي تقوم على أساس أنه لا ثقافة بلا معتقدات ، وأن المعتقدات هي اكسير الحياة داخل أي بناء ثقافي بسيط أو متشابك تعمل لأن تكون صحيحة .

رابعا : هذه المعتقدات — التي تشكل اكسير الحياة في ثقافة الشعوب — لا يمكن افتراضا أن تتخلى عنها أي ثقافة حديثة أو تقليدية ، ولا يمكن لذلك أن ينحسر سلطان المعتقدات في طبقات اجتماعية معينة أو راقات ثقافية خاصة ، بحيث تصبح وقفا على الطبقات الكادحة وغير المستنيرة أو على الراقات الثقافية الدنيا . فهذه الفرضية تقوم على أساس مؤداه أن المعتقدات ليست سمة نوعية تتصف بها فئات انسانية وتتحرر منها فئات أخرى . وهذا يتطلب أن تسعى الدراسة التي بين أيدينا الى الكشف عن عمق المعتقدات في تصورات

وتفسيرات الفئات الثقافية المختلفة بل فئات العمر المتباينة للتأكيد من أن المعتقدات هى غطاء ثقافى لا يستطيع أن تتخلى عنه الأجيال الشابة ، ولا تستطيع أن تنبذه العقول الموضوعية التى استطاعت أن تسخر الحركة المادية لهذا الكون لمشيئتها وتصل الى مستويات رهيبة فى اختراعاتها التكنولوجية .

هل صحيح أنه كلما ازداد الانسان عمقا فى المعرفة والعلوم كلما ازداد تمسكا والتصاقا بمعتقداته التى لا يسعى ولا يجسر على أن يخضعها للتجريب والفحص العقلى المباشر .

أم ان عمق المعتقد ذاته يكون أبعد أغوارا لدى البسطاء والكافة الذين يتقبلونها لأنهم لا يملكون القدرة على التفكير فى معطياتها ، ولأنهم يعيشون تحت اسار التقليد الميكانيكى والمحافظة المخلصة على القديم بوعى أو بدون وعى ؟

خامسا : اذا كانت المعتقدات التى يحفظها الناس فى صدورهم ، ويتناقلونها جيلا بعد جيل هى سمة الحياة فى المجتمعات الانسانية ، فهل يمكن القول بأن تقدم بعض المجتمعات وتخلف بعضها الآخر انما يرجع الى عوامل أخرى خارجة عن اطار تصوراته وتفسيراته الاعتقادية ؟ بمعنى أننا نلاحظ — حتى يومنا هذا — فى المجتمعات الأوروبية المتقدمة مثلا — احتفاظا فائقا بالمعتقدات ، قد لا يقل عن القدر الذى يوجهه الناس الى هذه المعتقدات فى مجتمعات أخرى آسيوية أو افريقية . وينسب المصلحون والمهتمون بتنمية المجتمعات المتخلفة عجز هذه المجتمعات عن ملاحقة عجلة التغيير اللازم لتقدمهم الى تخلفهم العقلى وجمودهم الثقافى والتزامهم بمعتقدات عفا عليها الزمن .

تقوم هذه الفرضية على محاولة لدحض هذا الاتهام باعتبار أن المعتقدات هى قوى تحقق الانتماء ، بينما يؤدى ضحالتها الى الاغتراب ، ومن ثم فان المنظورين الاقتصادى والسياسى ينبغى أن يكونا موضع الاعتبار عند محاولة النهوض بهذه المجتمعات البسيطة ، ارتكازا واستنادا الى القوى الاعتقادية التى تشكل الوحدة القومية والشخصية المميزة لهذه الجماعات أو تلك . فالتخلف الاقتصادى الناشئ عن الاعتماد على هيكل احادى المنشأ ، والتسلط الاستعمارى الذى يحول دون تحرر الشعوب واختيار طرائق حياتها الملائمة لتطلعاتها ، تلعب دورا بالغ الأهمية فى تخلف هذه المجتمعات — التى يصور

المفكرون والكتاب الملتزمون بايديولوجيات محددة ، الى أن فقرها ومرضها وتدنى مستوى المعيشة فيها انما مرجعه الى قصور فى التفكير وضمور فى التفسير لمجموعة المعتقدات المسيطرة على حياتها اليومية — مغفلين تماما أثر التخلف الاقتصادى والسياسى فى عجز هذه الشعوب عن استثمار طاقاتها الكامنة وقدراتها التى يطويها النسيان يوما بعد يوم •

سادسا : وأخيرا ، اذا كانت المعتقدات هى قوى ثقافية معنوية ، فهل يمكن تعبئتها وبلورتها وازالة الغبار الذى يمكن أن يلحق بها ؟

فمن الأمور المسلم بها أن تلتصق بالافكار الرائجة مجموعة من البدع والأفكار السقيمة لكى تجد طريقها الى قلوب الناس وأفكارهم مع ذيوع المعتقدات ذات الاصالة الراسخة فى النفوس •

وتقوم هذه الفرضية على شقين : أولهما ، أن هناك أفكارا طفيلية استطاعت أن تلتصق بالأفكار الأصيلة ، ومن هنا فان المعتقدات قد لاتكون نقية بصورة كاملة كما أنها لا يمكن أن تكون سقيمة بصورة شاملة أيضا • ويعتمد معدل نقاوها على قدرة الباحث فى انتقاء الأفكار الدخيلة وعزلها عن المجموع الكلى للمعتقد من واقع التشكيلة الفعلية لحياة الناس وتفسيراتهم بصورة متكاملة •

أما الشق الثانى لهذه الفرضية فهو أن استثمار الطاقة الناشئة عن فعالية المعتقدات الايجابية يعتبر حجر الزاوية فى أى خطة متكاملة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية • فالتنمية ليست مجرد زيادة فى معدلات الدخول أو تحسين فى طرائق الحياة والخدمات التكنولوجية ، أو حتى فى تحسين الظروف الصحية وتخفيف معدلى المواليد والوفيات بحيث يعيش الانسان سيدا على أرضه ، ولكنها أولا وقبل كل شىء محاولة أخلاقية وروحية بعيدة الاعماق لتوفير الرضا والقناعة ، وهما المحصلة الكبرى لسعادة الانسان •

وهكذا يقع على عاتق هذه الدراسة العمل على اكتشاف الوسائل الفعالة والناجحة لاستثمار المعتقدات الايجابية بكل مظاهرها ، استثمارا يساعد على بناء

الانسان المنتمى القادر على العطاء والأخذ بصورة تتكافأ مع ما يمكن استثماره فى مجتمعه من موارد مادية وبشرية وفنية لاتظهر نتائجها الفعلية الا مع الاستثمار الامثل لكافة القوى الروحية والاخلاقية الكامنة فى صدور الناس، وتحتاج الى طرائق عملية لتحويلها الى طاقات دافعة نحو التقدم فى صورتيه المادية والمعنوية .

تعريف بمجتمع البحث

المجتمع الذى وقع عليه اختيارى ليكون مجالا للدراسة الحقلية ، هو المجتمع الاردنى — الذى يقع فى الجهة الجنوبية الشرقية من البحر الابيض المتوسط بين درجتى عرض ٢٩ و ٣٣ شمال خط الاستواء ودرجتى طول ٣٤ و ٣٩ شرقا .

فالمملكة الاردنية الهاشمية مجتمع صغير لاتتجاوز رقعته الارضية ٩٠ ألف كيلومتر مربع ، تطل عليه سوريا من الشمال وفلسطين من الغرب والعراق من الشرق والمملكة السعودية من الجنوب . وقد أخذ الاردن — كما يقول الجغرافيون — " من كل شىء بمقدار ، فمن البيئات النهرية الفيضية أعطاه نهر الاردن لمحة طبيعية من أرض النيل أو من الرافدين ، ومن البيئات الجبلية الحرجية حبته جبال عجلون والخليل بنموذج مصغر من لبنان أو أطلس . أما بيئته الصحراوية فقد ضمت فى جوانبها ملمحا من كل صحراء ، فالبحر الميت جمع بين خصائص كل من بحيرة قارون ومنخفض القطارة وشطوط الجزائر ، والحجارة البازلتية بشمال شرق المملكة الاردنية الهاشمية ظاهرة مشتركة مع البوادى السعودية والسورية على الجانبين ، وواحات الازرق نظير الجوف أو الداخلة ، وربما كان وجه الشذوذ الوحيد للصحراء الاردنية هو قلة نصيبها من رواسب الرمال الهوائية وتجمعات الكثبان التى تشيع بغيرها من الصحارى العربية . "

ويمكن القول بأن الصحراء الحقيقية تغطى أكثر من تسعة أعشار الاراضى الاردنية ، ومع ذلك هو يرث موقعا جغرافيا ممتازا اكسبه أهمية بالغة كمجال وصل بين أقطار

مجاورة وناشية منذ فجر التاريخ • فللأردن مزية الوصل بين حضارات سوريا وبلاد مابين النهرين وبين الحضارة المصرية ، كما أعطاه موقعه على مدخل جزيرة العرب من الجنوب مزية أن يكون الدرب الرئيسي الذى كانت تسلكه الموجات العربية على اختلاف اتجاهاتها •

فهذا المعبر المتميز بالمناخ الملائم وبالخير المناسب كان فى كثير من المجالات يدفع ببعض الجماعات الى الاستقرار دون أن تواصل رحلتها أو أن تستقر وهى فى طريق عودتها •

ويؤكد تاريخ شرقى الأردن وقبائلها " الى أن عددا غير قليل من العشائر الوافدة من الجزيرة العربية قد استقرت فى الأردن حتى فى مرحلة ما قبل الاسلام • وكان لظهور الاسلام وانتشاره فى الجزيرة العربية تأثيرا واسعا فى اتجاه موجات سكانية جديدة محملة بقوى روحية وطاقات حضارية جعلت من مناطق العبور ابتداء من جنوب الأردن ـ التى تمثل شمال شبه الجزيرة العربية ـ مناطق الاستقرار حتى شمال وغرب الأردن ، الأمر الذى جعلها مراكز على درجة عالية من الانتعاش والازدهار الزراعى والتجارى •

وأخذت التحركات السكانية بين البادية والريف والحضر أشكالا تكاد تكون منتظمة مع موجات الانتعاش والضيق الاقتصادى • ففى فترات الانتعاش كانت القرى والمدن تزدهر بالحركة والمعاملات ، أما فى حالات الجدب والكساد الاقتصادى فكانت تظهر قوة العشائر البدوية وسطوتها وكثيرا ماكانت تنقض العشائر التى حرمتها الطبيعة من الماء والكلأ على القرى الوفيرة الزرع والماء • وكان البقاء فى جميع الحالات وقفا على الأقوى ، الأمر الذى أدى الى حركات متتابعة من الغزو والنزوح والتتابع على مر التاريخ • وتتصف أمطار الأردن بالتناقض الشديد فبينما تنقضى سنوات كاملة ومتتالية دون أن تجود السماء بقطرة واحدة ، نجد أن الغيث قد ينهمر فجأة الى الحد الذى قد ينزل من المطر فى يوم واحد ما يعادل ثلاثة أرباع المعدلات السنوية ، وقد يصل حتى الى ضعف المعدل السنوى العادى •

وينفى علماء الجغرافيا الثقات أن يكون لمعدلات الأمطار أثر مباشر فى تدهور أحوال البيئة الطبيعية فى الأردن بوجه عام وفى منطقة الجنوب بوجه خاص، ذلك لأن المياه الجوفية فى كثير من المواقع يمكن أن تكون البديل المناسب عندما يعز الماء الذى تفيض به السماء .

أما تدهور البيئة فان مصدره المباشر هو الانسان الذى غزا هذه البقاع وداس على أرضها وانتزع منها خيراتها ، فمنذ القرن العاشر قبل الميلاد تراجعت غابات جنوب الأردن بسرعة أمام فؤوس معدّنى النحاس الذين استغلوا الأخشاب كوقود لأفران الصهر ، وأتى الأتراك قبيل الحرب العالمية الأولى وأثناءها فأتموا هذا الدمار .

وهكذا ندرك أن منطقة الجنوب كانت من أغنى بقاع الأردن ومركزا زراعيا وتجاريا مزدهرا ، وأن الصورة التى التصقت بأذهان الباحثين عن أن الجنوب يتصف بالجدب والفقر والحرمان من الخدمات هى صورة مشوشة مصدرها النزوح المستمر الى الشمال الأمر الذى أدى الى خفوت معدل النشاط الاقتصادى والاجتماعى ، وبالتالى معدل الخدمات فى مرحلة من المراحل الوسيطة فى تاريخ هذه البقعة .

ومن المفيد أن نلقى بعض الأضواء على التاريخ الثقافى للمجتمع موضوع الدراسة . والتاريخ الثقافى الذى نعنيه هو محصلة التفاعلات المستمرة بين الانسان والبيئة التى يعيش فيها . وهكذا تظهر أهمية الموقع والمناخ وعمليات الغزو والتتابع والنزوح التى تعرضت لها الموجات البشرية التى حلّت بهذه المنطقة أو رحلت عنها ، لأن لهذه العمليات المادية تأثيرها البعيد المدى على هذه الأرض بما تحققه من تواصل اجتماعى واقتصادى وتزاوج ثقافى وحضارى بعيد المدى . هذا الى جانب ما يتناقله الناس جيلا بعد جيل مما يحفظونه فى صدورهم من معتقدات ومعارف وتصورات حول القضايا الرئيسية فى حياتهم . فالتصورات والتفسيرات التى يحفظها الناس فى صدورهم هى المرآة التى تعكس ثقافة الجماعة وتكشف عن الينابيع التى تغذى تراثها ومعتقداتها ومعارفها بالشكل الذى يمنحها شخصيتها ويدعم عناصر وحدتها على الرغم من التيارات التى قد تعترض

طريقها أو الافكار والممارسات المستحدثة التى قد يتبناها بعض أفرادها ، وتنفذ الى ثقافتها بين الحين والآخر • فانسان الصحراء الذى يعيش فى اتصال مباشر مع الطبيعة ، يقضى الساعات الطوال متأملاً زرقة السماء أو سمرتها ، متابعا منازل النجوم وحركات الكواكب محاولا فك رموزها واستقراء حركاتها • وسرعان مايصبح قادرا على معرفة أفراح السماء وأحزانها متى ترضى ومتى تغضب ، متى تسخو عليه بخيرها وعطائها ومتى تقبض عنه كرمها وفيضها •

ونتيجة لهذه الخبرة المباشرة أحيانا ولتعاليم الآباء والأجداد أحيانا أخرى يرسم الانسان لنفسه طريقا لاسترضائها واتقاء غضبها ، وهو فى كل ذلك لايستخدم العقل أو التحليل المنطقى ، وانما يستلهم المشورة ممن سبقوه الى معايشة الطبيعة ثم ما يلبث أن يحرص على نقل هذه المكتسبات الى أبنائه وأحفاده والى جيرانه وأقرانه • وبالاضافة الى السماء والهامها ، يجد الانسان البدوى الأردنى زادا ثقافيا هائلا فى الأرض ورمالها وجبالها ، وفى عشبها وشجرها ، ويجد فى دوابه — لحمها وشحمها بل عظمها وجلدها ووبرها — وهكذا تجمع لديه أكداس من المعارف التى ماتلبث أن تجد لها تفسيرات وتصورات قد تتشابه أو تتناقض مع مايتصوره الناس فى بقاع أخرى من مجتمعه ، ولكنه لايستطيع أن يقف منها موقف المحلل أو الباحث عن مدى قوتها أو ضعفها ، فعاليتها أو عدم جدواها ، لأنها أمور لاتقبل الجدل أو المناقشة أو التحليل فهى التعبير الحقيقى للتراث الثقافى الذى ينتمى اليه النسيج الذى يساعد بتراكمه على تحقيق الوحدة الفكرية للجماعة التى يشاركها حياتها ، والدفء الوجدانى والعاطفى الذى يسعى اليه كل فرد من أفرادها •

ولا يعنى ذلك أن المجتمع الأردنى — على الرغم من طابعه الصحراوى الغالب هو مجتمع بدوى فى كلياته ، ذلك لأن الشريط الحضرى شرقى الأردن — والذى يمثل جزءا من عشرة فقط من رقعة المجتمع الأردنى — هو أكثر المناطق السكنية كثافة " فهو يضم أكثر من خمس وثمانين فى المائة من مجموع السكان " ولكن التأثير الثقافى

والنظائر الثقافية لما يعيشه أهل البادية الأردنية يكاد يغطى مناطق التركز السكانى فى المواقع الحضرية •

وقد يتصور الباحث — فى بداية بحثه — أنه سوف يجد أنماطا ثقافية متباينة المناهل بحسب التوزيع السكانى فى الحضر والريف والبادية ، أو يجد انحسارا للمعتقدات والمعارف النقلية فى أوساط أصحاب الثقافة العقلية ، ولكنه سرعان مايتبين أن ثقافة المجتمع الأردنى هى الغطاء الذى يلتحف به سكانه على اختلاف مواقعهم وتباين أبعادهم الطبقية والمهنية والتعليمية ، وأن التباين لا يمس المعتقدات والمعارف الشعبية التى تمثل الجوهر ، وانما ينصرف الى المظهر والأسلوب المتمثل فى الجانب المادى البحت من ثقافته • فالتصورات المتصلة بالقوى الطبيعية والمعتقدات المرتبطة بالكائنات فوق الطبيعية وبالقوى الفيزيقية والنفسية التى استقرت حولها التفسيرات العلمية ، لم يصبها التبديل والتحوير من ناحية القوى الدافعة أو القوى المانعة لها ، لأن مصدر هذه القوى هى فوق قدرات البشر •

والدليل على ذلك أن أقصى ماستطاعت البحوث العلمية الاجتماعية المتقدمة أن تحققه هو الكشف عن العوامل التى تشترك — كلها أو بعضها — فى ظهور الواقعة الاجتماعية • أما القوى الفاعلة فى ايقاظ هذه العوامل أو اثارتها فلاتزال أبعد من قدرات التحليل العلمى والتجريب المباشر ، لأن العقل البشرى لم يستطع — حتى يومنا هذا — أن يصل مع كل الامكانيات المتاحة أمامه أن يصدر قرارا حاسما حولها ، ذلك لأن هذه القوى الفاعلة هى التى تحرك العقل البشرى ذاته •

ومن المتفق عليه أن التاريخ الثقافى لأى شعب من الشعوب هو — بطبيعة الحال — ذلك التراث المتراكم عبر الأجيال ، لأن هذا التراث هو الذى يحدد السمات الأساسية للشخصية القومية المميزة لهذا الشعب أو ذاك • وكلما كانت الجماعات التى تشكل هذا البناء المجتمعى عريقة فى القدم كان غطاؤها الثقافى سميكا ، لأن معارفها ومعتقداتها بل وآدابها وعاداتها ، تكون قد اكتسبت قداسة وتبجيلا تضافرت فى تحقيقه الأجيال المتعاقبة لأنه يمنحها الاحساس بالوحدة والاعتزاز بالانتماء الثقافى للجماعة •

ولهذا كانت طرائق الحياة مصدرا هاما فى ثقافة الشعوب • فاقتصاديات الرعى أو الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار أو الآبار أو الأنهار ، واقتصاديات الصيد من البحار أو الأدغال ، يرتب كل شكل منها لأصحاب هذا الهيكل الاقتصادى أو ذاك نمطا من المعتقدات والمعارف الشعبية التى تساعدهم على مواجهة المجهول واسترضاء القوى التى يعتقد أنها تتدخل لمساعدتهم أو معاكستهم والاضرار بهم • ويترتب على ذلك مجموعة من المعارف المساندة التى تنتقل من جيل الى جيل — باعتبارها حصيلة اكتسبتها هذه الأجيال — وعليها مسؤولية نقلها واستقبالها بما تستحقه من رضا وقبول واستسلام اذا لزم الحال •

ومن المسلم به كذلك أن تجمع الوحدات السياسية واتحادها أو انقسامها وانشقاقها يتحكم فيه الى حد كبير العوامل الايكولوجية التى تتمثل فى الظروف البيئية • فعندما تقسو الطبيعة يضطر أعضاء الوحدة السياسية التى تمثل النواة الى التفرق فى هذا الموسم أو ذاك لرعى ماشيتها • وقد يجدون أنفسهم مضطرون من أجل البقاء الى الاندماج بدرجات متفاوتة مع جماعات أخرى من جيرانهم، الأمر الذى يساعد على تثبيت المعتقدات واكتسابها قدرا أوفى من التبجيل والتقديس كلما ظهرت الوحدة فى الأفكار حتى ولو صاحبها تنوع بدرجة أو بأخرى فى أشكال الممارسة •

هذه الظروف الجغرافية والتاريخية تنعكس بصورة مباشرة على الانسان الذى يرتبط بوطنه وأمته ارتباطا عضويا وثيقا ، ويتصف بالولاء العميق لتقاليده المستمدة من طبيعة الحياة التى حددتها ظروف البيئة ومتطلبات التكيف معها وتكييفها لصالحه ويترتب على ذلك طابعا ثقافيا ينهل من الثقافة العربية الاسلامية من جهة ، وسمات ثقافية تضفى على الانسان العربى الأردنى شخصيته المميزة • ولهذا يلاحظ الباحث فى ثقافة المجتمع الأردنى محافظة غير متعنتة على التقاليد والاعراف العربية ، والايمان الذى لا يتزحزح بقوى الخير والشر التى تحملها له الملائكة أو الشياطين فيخضع لمشيئتها دون أن يجرؤ على مناقشة أسباب رضاها أو نقمتها ، فهو يعتقد أن كل ما يمكن

التعبير عنه بالكلمة واللفظ هو من بسائط الامور ، أما الافكار التى لا يتيسر ترجمتها بالالفاظ والكلمات المحددة ، فهى من عظائم الامور التى يجب أن تظل بمنأى عن خطايا البشر • (١)

ولهذا ينبغى ألا يفاجأ الباحث عندما يتبين أن ابن البادية يتحدث بنفس اللغة الفكرية التى يتحدثها ابن المدينة ، ذات الحضارة المتقدمة • وينبغى ألا يتصور أنه أمام حالات مصطنعة اعتزازا بالتراث الثقافى الذى ينهل منه — اذا وجد أن الطبقة الارستقراطية وذات النفوذ تتبادل نفس المعتقدات والافكار بنفس التصورات والتفسيرات التى يبديها البسطاء الذين لم يحتكوا بأى حضارة غربية متقدمة • ذلك لأن الامور المتعلقة بالقدرية والحتمية ، والممارسات التى تفترض خضوعا كليا واستغراقا كاملا فى التوحد مع القوى الكبرى الآمرة أو الناهية ، لا يختلف فيها أبناء الثقافة الواحدة سواء من وصل منهم الى أقصى درجات المعرفة العلمية أو ذوى المعرفة التى تنتقل شفاهة عبر الاجيال دون أن يكون لها أى سند مكتوب • كما أن جزئيات العناصر التى تؤدى بتفاعلها الى ظهور الحدث واختفائه ليست من صنع البشر ، واذا كان للبشر أو الادوات التى يخترعونها دورا ما فلن يكون دورا فاعلا بأى صورة من الصور ، وانما هو دور منفعل يخضع خضوعا كاملا لاحكام القوى العليا المجردة التى تسيره وفقا لمشيئتها وارادتها فى ادارة هذا الكون •

---

(١) يتجه عدد من المفكرين الى القول بأنه كلما ازداد اعتماد الثقافة على المعرفة التى يمكن الحصول عليها عن طريق الملاحظة كلما قل الاعتماد على المعتقدات — سواء كانت دينية أو غير دينية — ولكن بعض الاشياء على شاكلة الحياة بعد الموت ، وغاية الحياة ، تخرج عن حيز التحليلات العلمية وتبقى فى كثير من الحالات مسألة لا يستطيع العلم أن يسبر أغوارها •
ومن هنا تظل مثل هذه الامور فى حيز التصورات ، لا مجال لمناقشتها لا أو التعبير اللفظى عنها والاكتفاء بالايماءات والحركات الجسدية التى تعبر عنها لدى المريدين أصدق تعبير •

وللمجتمع الاردني تركيبته الديموغرافية والايكولوجية والسوسيولوجية التي تميزه عن غيره من المجتمعات العربية بوجه عام ومجتمعات بلاد الشام بوجه خاص. فهو مجتمع سريع النمو اذ يبلغ معدل النمو السكاني فيه زهاء ٣٫٢ ٪ سنويا ، كما أنه مجتمع فتي بمعنى الكلمة ، اذ يتركز حوالي ٥٠ ٪ من السكان في فئات العمر التي تقل عن خمسة عشر سنة .(٢)

ويلاحظ أن حركة واسعة من النزوح نحو المناطق الحضرية تنطلق من المناطق الريفية والبدوية بوجه خاص. ولهذا يبدو المجتمع الاردني — كما سبق وأسلفنا — وقد تركز سكانه في احدى الحواشي الضيقة ، تاركين بقية المساحة كفراغ سكاني أو شبه فراغ ، نظرا لتحول عدد كبير من العائلات البدوية الى الاستقرار بعد أن أتيح لعدد كبير من أبنائها فرص التعليم الجامعي داخل الاردن وخارجه ، وتوليهم مراكز مرموقة في العاصمة أو المدن الكبرى .

أما التركيب الايكولوجي للمجتمع الاردني فيتمثل في عطاء البيئة وفي التفاعلات الناجمة عن النشاط السكاني مع هذه البيئة . فاذا ألقينا نظرة خاصة على المواقع المختارة للدراسة الحقلية في جنوب الاردن ، تبرز أمامنا على جانبي الطريق الصحراوي السريع من عمان للعقبة مجموعة من الأراضي الشريطية الآهلة بالسكان وأخرى صحراوية شاسعة تتناثر فيها بيوت الشعر التي ترمز الى وجود أنواع من الحياة الارتحالية وراء قوافل الابل والماعز التي تلتقط غذاءها مما تجود به الطبيعة في موقع أو آخر من الصحراء القاحلة .

ويبلغ مساحة الاراضي المستغلة بالفعل من بين مساحة الاراضي الصالحة للزراعة ما لا يزيد عن ٥٠ ٪ من هذه المساحة ، والشكل الشائع للملكية هو

---

(٢) تعداد السكان للمملكة الاردنية الهاشمية عام ١٩٧٩ .

الاقطاعيات الكبيرة حيث تتجاوز فى الكثير منها مائتى دونم للاقطاعية الواحدة • ولهذا ظهر نوع من العمل يعرف بأسلوب " المزارعة "(٣) — الذى يمنح الفلاح حصة معينة من ثمن المحصول لقاء عمله بالارض — وقد أظهرت دراسات الاقتصاديين أن فئة قليلة من كبار الملاك تستحوذ على تسعة أعشار المساحة الكلية للاراضى المستغلة • وتنعكس هذه التركيبة على شكل العلاقات الانسانية بحيث تزداد القبائل والعشائر القوية — بنيتها العائلية — قوة ومنعة نتيجة للثراء المادى الناجم عن طبيعة نظام الملكية الذى تتضاءل فيه الفرص أمام صغار الملاك أن يمارسوا دورا أساسيا داخل البناءين الاقتصادى والاجتماعى فى المجتمع موضع الدراسة •

أما التركيبة الاجتماعية لسكان المجتمع الاردنى فتظهر فى توزيع القبائل والعشائر والفرق والبطون والعائلات الممتدة فى كل من البادية والريف ، ذلك لأن الجانب الاكبر من الاسر التى تعيش فى المدن — والتى يبدو من شكلها الخارجى أنها ذات سمة نووية ، فان الواقع يظهر أنها ممتدة فعلا بسبب الروابط العشائرية التى تربطها بذويها فى كل من الريف والبادية • كما أن للتجمعات الدينية والمهنية والطبقية تأثيرها الواضح فى شكل التركيبة الاجتماعية بالمجتمع الاردنى •

---

(٣) يذهب مؤيدو هذا النظام الى أنه يحقق العدالة الاجتماعية ، بحيث لا يتعرض المزارع وحده للمخاطر • ففى نظام المزارعة يشترك المالك والمزارع فى تحمل المخاطر كلٌ بحسب حصته المقررة سلفا حسب نوع الزراعة ودرجة المشاركة فى تحمل الأعباء من بذار وسماد وخدمة وخلافه • ولهذا تقوم المزارعة على أساس المناصفة أو المثالثة أو المخامسة حسب الأحوال •

وعلى الرغم مما يوجه الى هذا النظام من أنه يؤثر على المدى البعيد فى قوة الارض نتيجة للاسراف فى ارهاقها نتيجة لعدم حرص المزارع على فلاحة الارض التى لا يملكها فى مستوى ملائم ، الا أنه الاسلوب المفضل فى اطار العادات الاجتماعية السائدة فى هذا المجتمع •

ويمكن الوقوف على درجة اتساع شبكة الترابطات فى البادية الاردنيـــة لو ألقينا نظرة على التوزيع القبلى فى المجتمع الاردنى — مستندين الـــى المادة التى يوفرها لنا كتاب فردريك بك عن : " قبائل شرق الاردن وتاريخهـــا " ، فما من قبيلة أو عشيرة أو فرقة أو حمولة فى الجنوب الا ونجد لها امتداد فى الشمال أو الوسط ، ويستطيع المتتبع لتاريخ هذه القبائـــل أن يجد تشابكا كبيرا فى تسلسلها القرابى .

وفى موضوع هذه الدراسة سوف ينحصر اهتمامنا بصورة أساسية على الجماعات الموجودة حاليا فى محافظتى الجنوب ، على أنه من الضرورى القاء نظرة سريعة على التشكيلات القبلية فى باقى مواقع المجتمع الاردنى ، ومن الضرورى التأكيـــد منذ البداية بأن هذه الدراسة لاتبغى ولاتستطيع أن تصل الى تصنيف وافٍ للقبائل والعشائر البدوية فى المجتمع الاردنى ، ذلك لانه — حتى وقتنا هذا — لاتوجد سجلات دقيقة ووافية لتسلسل الانساب وتتبع حركات القبائل البدوية فـــى هذه الرقعة من الوطن العربى .

يقول فردريك بك : " ان تاريخ شرق الاردن ظل بمنأى عن الاهتمـــام الجدير به ، وظل تاريخ القبائل والعشائر البدوية وأنسابها وأسمائها ، وهى بطبيعتها سريعة التغيير والتبديل — تذكر فقط فى الاشعار والقصص والاغانى الشعبية . اذ ليس من اليسير تعيين نسب قبيلة أو عشيرة أو ردها الى أصلهـــا القديم ، بل من المستحيل ذلك فى بعضها . واذا اعتمد الباحث على مايؤكده له شيوخ العشائر والفرق والحمايل فسوف يجد أنه أمام سلاسل متناقضـــة مـــن الانساب التى يحاول هذا الفريق أو ذاك التأكيد على انتمائه لهـــا دون أى أدلة أو شواهد يمكن أن تؤكد صحة هذه الروايات . " (٤)

---

(٤) فردريك بك : قبائل شرقى الاردن وتاريخهـــا .
عمان ، الدائرة الثقافية ١٩٣٨ ، ص : ٢١١
" . . اذن فالتاريخ القومى أخذ يتلاشى بسرعة فقد فقدت الذاكرة كثيرا منه ، وأما ما بقى فسوف يندثر بموت المتقدمين فى السن الذين يعدون الآن على الاصابع والذين — لحسن حظ التاريخ — لايزالون يذكرون قليلا من أشعار السلف وأخبارهم ، ومن قصص الابطال ومغامراتهم . " ص: ٢١٢

تنقسم البادية الاردنية — وفقا لتصنيف فردريك بك — الى قسمين :
أحدهما يضم قبائل الشمال والوسط والثانى قبائل الجنوب .

أما قبائل الشمال والوسط فتضم ثلاث مجموعات هى :

(١) قبائل منطقة البادية التى تضم سكان المواقع الصحراوية فى جنوب سوريا والوادى ذات الكثافة السكانية المتدنية على أطراف الهلال الخصيب (٥) وحول حوران وجبل الدروز — وتضم سبع قبائل جميعها مسلمة هى بنى خالد وبنى صخر وبنى عطية والحجايا والحويطات والسرحان والعجمى .

(٢) قبائل منطقة البلقاء التى تشمل سكان السلط والبلقاوية وبنى حميد والحديد والدعجه والشطية وعباد والعجارمه والعدوان والنعيمات . ويلاحظ أن عشائر السلط والبلقاوية مزيج من المسلمين والمسيحيين . ففى السلط يوجد سبع عشرة عشيرة مسلمة واثنى عشرة عشيرة مسيحية . ويقال ان احدى فرق عشيرة الازايدة المسلمة كانت فرعا من عشيرة المعايعة المسيحية ثم أسلم جدها وانفصل عن عشيرته وتزوج من الازايدة حيث يعرف أعقابه بالمعايعة الازايده .

(٣) قبائل منطقة عجلون التى تشمل مجموعة من الحمايل موزعة فى نواحى بنى جهمه وبنى عبيد وجبل عجلون والرمثا والكفارات والسرو والغور والكوره وبنى حسن والوسطيه . ويلاحظ أن الحمايل المسيحية مركزة فى نواحى بنى عبيد والكوره والمعراض ، فمن بين ١١٧ حموله فى هذه النواحى الثلاث يوجد ٢٠ حموله مسيحية ، غالبيتهم روم اورثوذكس ومنهم كاثوليك وبروتستانت ولاتين وسبتيين .

---

(٥) "فى أوائل القرن الماضى كانوا يقيمون فى شمالى حمص بسوريا وكان عليهم أن يقدموا عددا من الماشية والجمال وكمية من السمن كل سنة لموكب الحج . يتبين من هذا أن بنى خالد ليسوا بدوا بكل معنى الكلمة منذ ١٣٠ سنة تقريبا . " المرجع السابق ، ص : ٢١٣

أما قبائل جنوب الاردن — وهى التى تهمنا بوجه خاص — فتشمل قبائل منطقة الكرك وقبائل منطقة معـان :

أما قبائل منطقة الكرك فتضم عشائر كل من الطفيلة والكرك — حيث تنقسم هذه الاخيرة الى عشائر الغرابه والشراقـه وأهل الناحية والبدو — وأما قبائل منطقة معان فتضم عشائر كل من معان والشوبك ووادى موسى . ويصل مجموع العشائر فى جنوب الاردن ٦٩ عشيرة تتفاوت فى عدد فروعهـا وفى درجة انتشارها شرقى النهـر وغربه أو فى الدول العربية الاخرى . (٦) وسوف نفرد لهذا الموضوع فصلا خاصا فى القسم الخاص بنتائج الدراسة الحقلية .

المنهج المتبع فى الدراسة الحقلية

استخدمت فى هذه الدراسة ثلاثة أساليب متكاملة داخل المنهج الانثروبولوجى هى :

(١) الملاحظة المتأنية (٢) المقابلة والاستبيان

(٣) الملاحظة المشاركة .

أما الملاحظة المتأنية فهى تمثل المرحلة المبكرة فى الدراسة الحقلية ، وهى ليست ملاحظة مشاركة ، لأننى حرصت فى مطلع الدراسة الحقلية أن يقتصر دورى على التعرف الدقيق على مجتمع البحث واكتشاف خصائصه وطبائع سكانـه عن طريق الزيارات المتتابعة للقرى الواقعة على طرق الدرجة الاولى والثانيـة انطلاقا من مراكز الاستقرار فى كل من الكـرك والبتراء والعقبة . أما القـرى التى لاتوصلها بهذه المدن سوى طرق غير مرصوفة أو رملية ، فقد استبعـدت من دائرة الملاحظة لتعذر الانتقال اليها بالسيارات .

---

(٦) المرجع السابق الاشارة اليه ، ص: ٢٤٢ / ٢٦٦ .

وقد أظهرت الملاحظة المتأنية نتائج ايجابية من ناحية الاستقراء الناضج القائم على اتساع الرؤية المستمدة من هذه الملاحظة ، بالاضافة الى ما أتاحته من توافر التلقائية التى لاحدود لها — عندما يشارك الناس بالحديث — أثناء الملاحظة . ولم تكن هذه المرحلة ولا هذا الأسلوب فى الدراسة الاستقرائية أمرا بعيدا عن موضوع الدراسة بصورة مباشرة ، لانه لم يكن يمر موقف دون أن يبادر واحد أو أكثر ممن يجمعنى بهم اللقاء — غير المخطط له — بالمبادءة بأسئلة على شاكلة :

كيف رؤيتكم لبلادنا ؟ هل قمتم بزيارة هذا الضريح أو ذاك المقام ؟

هل جربتم هذه الاعشاب أو تلك فى فتح الشهية أو منع الارق أو اضطراب الأعصاب ؟

وعشرات غيرها من الأسئلة التى كان الموقف يثيرها من وقت لآخر . بل انه فى بعض الحالات — التى كنا نستفسر فيها عن علاج للخوف أو القلق ، كانت المشورة التلقائية تصل الى تسمية بعض العرافين أو المشايخ أو السحرة المعروفين فى المنطقة .

وهكذا كانت تتدفق المعلومات دون أن آخذ موقف الباحث الذى يوجه الأسئلة ويشعر الناس بأنهم موضوع للمساءلة — فى أى مستوى من مستوياتها — وفى عبارة واحدة لم تكن هذه الملاحظة المتأنية تهدف بأى حال الى النفاذ داخل صدور الناس أو التحرى عن أفكارهم .

الأسلوب الثانى هو المقابلة والاستبيان :

من المتفق عليه أن المقابلة فى البحث الانثروبولوجى تتطلب رعاية أكبر مما تطلبه فى البحث السوسيولوجى أو البحث السيكولوجى . فهى تستلزم توافر الجو الملائم والثقة التى لاغنى عنها للوصول الى تفسيرات وتصورات بعيدة عن الاصطناع والمجاملة .

واذا كان الانثروبولوجيون الاوائل قد استخدموا الاخباريين كبديل للمقابلة مع المواطنين الاصليين ، فلم يكن ذلك ناشئا عن قصور فى التواصل اللغوى فحسب ، ولكن هذا الاسلوب كان موردا غنيا لتزويد الباحثين بقدر هائل من المعلومات — حتى ولو كان بعضها خاطئا أو مبالغا فيه — فهذه المعلومات تستخدم — عادة — بمثابة المواد الخام التى تساعد الباحث الانثروبولوجى على ضبط ملاحظته وتوجيهها الى الجوانب التى يحتاج فيها الى رؤية مباشرة ومشاركة متكررة •

وقد استطعت بمعاونة فريق من ست طالبات فى السنة النهائية بالجامعة الاردنية ، أن أطبق الاستبيان على ٦٠ راويا وراوية بواقع ١٠ حالات لكل اخبارى ، بالشكل الذى أمكن معه تغطية مجتمع البحث بصورة وافية •

وكان للثقة التى توافرت بينى وبين أفراد هذا الفريق ، أن يتفهموا أهداف هذه الدراسة بعمق ، وأن يظهروا قدرا عظيما من الوعى والغيرية الذى دفعهم الى استثمار عطلات نهاية الاسبوع الجامعى والعطلات الطويلة للاسهام فى الحصول على المعلومات التى أوردها الاستبيان •

وقد ساعدتنى هذه الروايات على مقارنتها مع نتائج مقابلاتى المباشرة مع الرواه الخمسة عشر فى القرى والمضارب التى وقع عليها الاختيار بعد المؤشرات الاولى والثانية لتكون مجالا للملاحظة المباشرة فى دراستى الحقلية •

ويمكن ايجاز الاهمية التى أظهرها اسهام هؤلاء الاخباريين فيما يلى :

(١) أنهم يمثلون نمطا جديدا داخل أسلوب المقابلة ، باعتبارهم يمارسون فى الواقع دور المشارك الملاحظ • فهؤلاء الاخباريين — بوصفهم من أبناء المجتمع موضع الدراسة — يعيشون حياة آبائهم وأقرانهم ، الامر الذى يساعد على التواصل الفكرى فى المسائل الاعتقادية ، ويحقق قدرا عاليا من الدقة والعمق اللذين لا يتوافران لاى ملاحظ من خارج الجماعة •

(٢) لا يوجد ما يمكن أن يدفع هؤلاء الاخباريين الى المبالغة في التصوير أو التفسير ، لأنهم يؤدون هذه المهمة بصورة طوعية نابعة عن الاقتناع بفعالية هذه الدراسة . وهذا يجعل للمعلومات التي يقدمونها قيمة عالية اذا قورنت بما يمكن أن يقدمه الاخباريون المحترفون .

وكان لنتائج الاستبيان الفضل في الوصول الى المعطيات التالية :

ا ــ أمكن ترتيب الأولياء بحسب أهميتهم في اعتقاد الناس ، وقدراتهم على الاستجابة لطلباتهم . ، كما أمكن تصنيف هؤلاء الأولياء الى أسطوريين وصحابيين ورمزيين ، بالاضافة الى فئة واسعة تضم المؤشرين والصالحين والمجذوبين .

وتبين أنه لا يوجد في مجتمع البحث طبقة اجتماعية أو مهنة اقتصادية أو فئة عمرية لا يشترك أصحابها في الاعتقاد بفعالية الالتجاء الى أصحاب الكرامات لتلقي مشورتهم والحصول على دعمهم . والفارق بين مستوى ثقافي وآخر هو في ترتيب الاتصال بهذه القوى والفارق بين مسلم وآخر هو في تحديد الغاية من زيارة الاولياء وعدم الخلط بين التبرك وطلب المشورة وبين الالتجاء للاولياء كغاية بعيدة المنال .

ب ــ كما أظهر الاستبيان أن الاعتقاد في وجود الجن مسألة واسعة الانتشار ، وساعدت النتائج في الوقوف على تصور الناس لأصناف وأنواع الجن وأماكن تواجدهم وطرائق حياتهم وامكانيات تناسلهم مع الانس . وطرائق ظهور الجن للناس ، وما الى ذلك من الدعائم الحيوية التي ساعدت على فعالية الملاحظة المشاركة .

ج ــ لم يظهر الاستبيان وجود علاقة بين الالتجاء الى الطب الشعبي وتوابعه (من رقى وتعاويذ وممارسات سحرية) وبين التخلف الثقافي . بل أعطى دلالة أكيدة على فعالية التطبيب والعلاج الشعبي لدى كافة الطبقات والمستويات الفكرية والاجتماعية . والفارق الوحيد هو في

الاشكال والطرائق ، أما الاعتقاد فى ذاته فهو يسير على قدم المساواة لدى جميع الفئات والطبقات والراقات الثقافية العليا والدنيا على السواء •

د — أظهر الاستبيان أن المعتقدات اليقينية مهما تباينت حولها التفسيرات والتصورات ، فانها تدور حول محور اعتقادى واحد ، الأمر الذى لاتجدى معه محاولات الوصول الى رواية تستند الى ماكتب حول الموضوع فى المدونات المختلفة ، لأن التناقل الشفاهى للرواية لايتغير معه الجوهر ، على الرغم مما قد يلحق بهذه الرواية أو تلك من حذف أو اضافة بحسب الأحوال •

هـ — كشف الاستبيان أن المعتقدات الظنية الغالبة — بأشكالها الغيبية أو العملية — وكذلك المعتقدات النقلية التقليدية ، هى وحدها التى تتفاوت حولها الروايات من ناحيتى الشكل والمضمون • ولهذا تظهر الحاجة الى تركيز الرؤية على نماذج أساسية منها لتحديد أعماقها فى صدور المؤمنين بها ، وتأثيراتها الايجابية والسلبية فى المجتمع موضوع الدراسة •

الاسلوب الثالث هو الملاحظة المشاركة :

بمجرد أن تحددت أمامى الموضوعات الاساسية للدراسة أخذت فى التهيئة لاختيار الموقع أو المواقع الملائمة للاستقرار الذى يسمح بقدر مناسب من معايشة الناس ومشاركتهم فى طرائق حياتهم اليومية التى تدور حول الموضوعات ذات الدلالة الاعتقادية •

وقد تحكم فى تحديد الموقع الملائم مجموعة من الاعتبارات أهمها امكانيات الاقامة بطريقة عادية ، وامكانيات الملاحظة القائمة على المشاركة الايجابية دون أدنى تغيير لطرائق حياتى الشخصية من جهة وبصورة يألفها المجتمع المحلى لاضطراد حدوثها من جانب الزوار المحليين أو الوافدين من جهة أخرى •

ولهذا كانت الاستراحات السياحية فى الكرك والبتراء فرصة طيبة تماما كمركز للاستقرار والانتقال اليومى الى مواقع الممارسات الاعتقادية عند المقامات والمزارات والاضرحة ، وعلى الاخص حول مؤتة والمزار حيث تتجمع مقامات عدد من الشهداء الصحابيين ، وهم يمثلون مجموعة نادرة من الاولياء ذوى التأثير فى طرائق الحياة فى المنطقة .

وساعدت استراحة البتراء فى أن تكون مركزا للملاحظة المشاركة لألوان من الممارسات الاعتقادية وعلى الاخص السحر والرقى والتعاويذ والحجابة وقراءة الطالع ، وبعض الممارسات المتعلقة بالجن بوجه خاص . ففى هذه المنطقة التاريخية الاثرية تتلاقى ألوان شتى من المهارات التى يمارسها محترفون أو انتهازيون يجدون فرصتهم سانحة مع الاعداد الهائلة من السياح من مختلف الجنسيات التى تتردد على هذه المنطقة .

وفى منطقة الطفيلة ساعدتنى احدى الاسر التى تربطنى بها صداقة وثيقة فى أن تهيء لى المأوى طوال ستة عشر يوما ، كانت من أثمن فترات الملاحظة المشاركة ، حيث ساعدت فى الدراسة العملية الدقيقة لعمق الاعتقاد فى بعض الاولياء الاسطوريين ، والوقوف عن كثب على مستوى المشقة التى يتحملها المعتقد فى القدرات الخارقة للولى ، الذى يقضى الايام الطويلة فى رحلة الانتقال اليه ويفترش الارض ويلتحف السماء حتى يرتوى من الالهام الذى يعتقده فى الولى الذى التجأ اليه . كما أفادنى الاستقرار بجوار بعض الاولياء الاسطوريين أن أتعرف بدقة على مدلول النذور وقيمتها المادية والمعنوية . فقد تبين بجلاء المعنى الرمزى للنذر الذى قد يكون متدنيا جدا فى قيمته المادية ولكنه ذا دلالة لا حدود لها من الناحية المعنوية . وفى هذه المنطقة أيضا كانت الملاحظة المشاركة مثمرة فى الكشف عن طرائق التطبيب الشعبى وآثاره النفسية والصحية فى ممارسيه ، وأمكن عن طريق ذلك الوصول الى توقعات حول مستقبل

الطب الشعبى — لا باعتباره شكلا اعتقاديا يرتبط بنسق ثقافى معين فحسب — ولكن باعتباره ضرورة أظهرت فيه البحوث العلمية الاهمية المتزايدة التى يحققها الطب الشعبى بشقيه ، الى الحد الذى أصبحت فيه الاعشاب البرية والممارسات التى قد تبدو ذات طبيعة سحرية جزءا هاما فى بحوث ودراسات علم النفس " المشبّه " أو مايعرف بالباراسيكولوجى ، الذى يعتمد اعتمادا كبيرا على بلورة المعتقدات الشعبية المتعلقة بالمداواه والتطبيب والعلاج للتخفيف من حدة اليأس ومساعدة المريض على أن يواجه مشاكله بنفسه بثقة وأمل فى أفضل شكل ممكن .

المصادر والمراجع الاساسية

تعتمد هذه الدراسة على مصدرين رئيسيين : أولهما خاص بالجانب النظرى ، والثانى خاص بالدراسة الحقلية . ففى الجانب النظرى اعتبرت موسوعة المعارف الشيعية ENCYCLOPEDIE des MYSTIQUES أساسا فى دراسة النسق الاعتقادى وفى الوقوف على الاشكال السحيقة والوسيطة والحديثة من البحوث المتعلقة بالقوى فوق الطبيعية بوجه خاص .

واعتبر كتاب الكولونيل فردريك بيك — الذى نقله الى العربية الدبلوماسى الاردنى بهاء الدين طوقان — عن " تاريخ شرقى الاردن وقبائلها " أساسا فى دراسة المجتمع البدوى الاردنى ، وفى تحديد شبكة العلاقات الاجتماعية التى تربط الوحدات التى تمثل الحياة البدوية والطابع الثقافى البدوى بتركيز الرؤية على منطقة الجنوب بوجه خاص .

ومن بين قائمة المراجع التى تجاوزت المائة ، والتى أسهم كل منها بقدر ما فى تقدم هذه الدراسة ودعمها وتوثيقها ، أجد من بينها مجموعة كانت محورا يرجع اليه فى أغلب فصول الكتاب وفى مراحله المبكرة والمتأخرة على السواء . ولا يعنى تخصيصى لها انتقاصا من قدر المراجع الاخرى ولكنه اعتراف بما لهذه

المراجع المحدودة من دور ايجابى تظهر بصماته بصورة واضحة داخل هـــذه الدراســـة •

ولهذا راعيت فى تسجيل المراجع أن توضع فى ثلاث مجموعات : مجموعة المراجع الاساسية ، ثم مجموعة المراجع المساندة ، ثم مجموعة المراجع العامـة •